

الهشاشة الاجتماعية في زمن السيولة عند زيجمونت باومان

"Social Fragility in the Era of Liquid Modernity in Zygmunt Bauman's Perspective"ط.د- هالة العباسي¹، أ.د- عبد الغاني بوالسكك²¹ مخبر حوار الحضارات والعملة - جامعة باتنة 1 ، (الجزائر). hala.labaci@univ-batna.dz² مخبر حوار الحضارات والعملة - جامعة باتنة 1 ، (الجزائر).

abdelghani.boussekek@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2025/08/14 تاريخ القبول: 2025/11/29 تاريخ النشر: 2026/01/23

ملخص:

شهدت المجتمعات المعاصرة تحولات كثيرة، أثرت على الوجود الإنساني. وذلك من خلال الانتقال من الحياة الصلبة إلى الحياة السائلة. ولقد كان الهدف من هذه الدراسة تسليط الضوء على أبرز التصورات التي صاغها باومان والتي تصف بدقة ما يحدث في المجتمع السائل من هشاشة، ومن أهم ما توصلنا إليه ما توصلنا إليه هو انتقال الوجود الإنساني من حالة الثبات والاستقرار إلى حالة من التغيير الدائم والسريع ما أدى إلى هيمنة النزعة الفردية، وسيولة الهوية وتراجع القيم الأخلاقية.

كلمات مفتاحية: حياة صلبة، حياة سائلة، زيجمونت باومان، هشاشة الحياة، علاقات إنسانية، قيم أخلاقية.

Abstract:

Contemporary societies have undergone profound transformations that have significantly impacted human existence, most notably the shift from a solid life to a liquid life. The aim of this study is to shed light on Bauman's most prominent conceptions, which precisely capture the fragility inherent in the liquid society. Among the key findings is that human existence has transitioned from a state of stability and permanence to one of constant and rapid change — a shift that has fostered the dominance of individualism, the fluidity of identity, and a decline in moral values.

Keywords: solid life, liquid life, Zygmunt Bauman, fragility of life, human relationships, moral values.

*المؤلف المرسل: هالة العباسي

1. مقدمة

إن التحولات التي شهدتها العالم في العقود الأخيرة كانت نتيجة عدة عوامل، منها التطور العلمي والتكنولوجيا وكذلك انتشار وسائل الإعلام والاتصال، ما أدى إلى خلق عالم مليء بالتغيرات المستمرة وعدم الثبات، وهذا ما أشار إليه المفكر البولندي زيجمونت باومان من خلال مصطلح "الحداثة السائلة" والذي يقصد به أن العالم في مرحلة

انتقالية من خلال الانتقال من الحالة الصلبة التي تعبر عن الثبات والاستقرار إلى مرحلة الحالة السائلة التي تعبر عن عدم الثبات والتغير المستمر والتي شملت جميع جوانب الحياة الإنسانية.

فالسبيلة أصبحت في العصر الحالي ظاهرة اجتاحت جميع جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية، ولم تقتصر على هذه الجوانب فحسب بل شملت أيضاً العلاقات الفردية ومست بمنظومة القيم الأخلاقية.

حاول زيجمونت باومان رصد معظم التغيرات التي طالت المجتمع الحالي، وحاول الكشف عن مختلف الأمراض التي أصابته وكيف كانت السبيلة سبباً رئيسياً لهذه الأمراض، لأنها أصبحت مهيمنه على العلاقات الإنسانية وسبباً في هشاشتها، بالإضافة إلى تحويل الفرد من منتج إلى مجرد مستهلك للسلع دون الشعور بالإشباع أو الاكتفاء، وغيرها من التغيرات التي نالت من الفرد وجعلته يعيش حالة من الخوف والقلق واللااستقرار.

إن السبيلة ليست مجرد مفهوم نظري بل هي أصبحت واقعاً فعلياً فرض سيطرته على صعيد الأفراد، وفي خضم هذا الواقع وجد الإنسان نفسه أمام دوامة من التحولات المتسارعة دون مقدرة على مواكبتها واستيعابها، ولقد كان للسبيلة انعكاسات على حياة الفرد وتتجلى هذه الانعكاسات بصورة واضحة في هشاشة الحياة الإنسانية، فهل يمكن اختزال الهشاشة في جانب واحد أم أنها شملت جل أو معظم الجوانب الإنسانية، وأين تكمن هذه الهشاشة؟

فرضيات الدراسة:

لتحليل إشكالية الدراسة نقدم الفرضيات التالية:

الفرضية الأولى: لقد اجتاحت المشاشة كل جوانب الحياة الإنسانية من خلال ضعف العلاقات وتراجع القيم والزياد الشعور بالقلق والتوتر اللذين أصبحا ملازمين للحياة الفردية.

الفرضية الثانية: تغلغت الهشاشة في البني الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، فهي لم تعد محصورة في جانب واحد. وكان لها آثار سلبية على حياة الأفراد والمجتمع.

هدف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى ما يلي:

- يعتبر زيجمونت باومان من المفكرين الذين اهتموا بمسألة الانسان في زمن السبيلة، وقد ركز باومان على الكشف عن تأثيرات هذه السبيلة على الفرد والمجتمع وذلك من خلال دراسته النقدية للمجتمع السائل.

- تسليط الضوء على التحولات والتغيرات السريعة التي طالت المجتمع المعاصر، والتي كانت من الأسباب التي أدت إلى هشاشة الحياة.

منهجية الدراسة:

اعتمدنا على المنهج التحليلي من خلال تحليل وفهم نصوص باومان، بالإضافة للمنهج النقدي والذي من خلاله عرضنا أفكار باومان النقدية.

2. هشاشة الحياة السائلة

يرى زيجمونت باومان أن هنالك ارتباطاً وثيقاً بين الحياة السائلة والمجتمع السائل، فكلاهما يستلزم الآخر، ذلك لأن المجتمع السائل هو مجتمع متغير باستمرار، وهذا التغيير يؤثر مباشرة على الأفراد، وهذا ما يؤدي إلى عدم استقرار أعمالهم وأفعالهم، ذلك لأنهم يستمدون طاقتهم من المجتمع. فحياة الأفراد السائلة مثلها مثل المجتمع السائل لا يمكنها أن تظل على وتيرة واحدة لمدة طويلة، بل تتغير وفق ما يتطلبه المجتمع الحديث السائل (باومان، 2016، صفحة 21).

من خلال ما سبق يشير باومان إلى أن الحياة في المجتمع السائل لم تعد تسير على إيقاع الثبات، ففي المجتمع السائل لا شيء يستمر لفترة طويلة، سواء القوانين أو العلاقات أو المبادئ أو الهويات، كلها خاضعة لقوانين التغيير والسرعة، بل أصبح كل شيء مؤقتاً وعابر، فالمجتمع السائل يجبر الأفراد على التكيف المستمر وفق متطلباته الغير ثابتة، وهذا يدل على هشاشة العالم الحديث السائل.

أما بالنسبة للإنجازات الفردية فهي في رأي باومان، لم تعد قادرة على منح الأشياء صلابة أو ثبات، فكل ميزة قد تتحول إلى عيب في أي لحظة، وكل قدرة قد تتحول إلى عجز بسبب سرعة التحولات، كما أن معظم الاستراتيجيات التي كان الإنسان يعتمد عليها في الماضي سرعان ما تصبح غير صالحة، أو تنتهي صلاحيتها قبل أن يتمكن من إتقانها (باومان، 2016، صفحة 21).

إن تجارب الماضي لم تعد مجدية ونافعة في الحاضر، ذلك لأن الواقع المعاصر يتغير بوتيرة سريعة، وأصبح أكثر تعقيداً، وخلال المرحلة الانتقالية من الصلابة إلى السيولة، أصبح المجتمع المعاصر السائل يحتوي على احتمالات كثيرة وغير مستقرة، ما جعل الاعتماد على أحداث الماضي يحمل مخاطرة قد تصل إلى نتائج مضللة. وفي هذا السياق، لا يستطيع الفرد تحقيق إنجازات دائمة لأن الأشياء الثابتة في المجتمع المسائل سرعان ما تفقد قيمتها وكذلك تفرض على الأفراد مواجهة أحداث غير متوقعة.

ومن خلال مشروع باومان النقدي لاحظ أن الحداثة المتأخرة تغمر الأفراد في واقع يتسم بالخوف واللا يقين وعدم الثبات، كما أفرزت وجوداً يسمى بالهشاشة، وأول ملامح هذه الهشاشة هو انهيار البنى الاجتماعية وتآكل العلاقات الإنسانية.

ففي ظل الحداثة السائلة تتعرض البنى الاجتماعية التقليدية للتآكل الدائم والمستمر، مما ينعكس بشكل سلبي على علاقات الفرد وعلى روابطه الاجتماعية؛ فالعواطف والعلاقات الإنسانية لم تعد محصنة في ظل المجتمع القائم على التجدد المستمر، بل أصبحت هذه المشاعر والروابط مرتبطة بلحظة معينة في فترة زمنية متغيرة وعابرة، وهذا ما جعل منها مرشحة للانحلال والتآكل والزوال.

في زمن الحداثة يجب على المرء أن يكون في حالة تأهب دائم لأجل إعادة تشكيل شخصيته وهو تيه، من خلال تخلصه من حالته السابقة والتقليدية والتي طبعها له المجتمع والانظمة السابقة، فعلى المرء أن يبتكر شخصية تتماشى لإرضاء الناس، لأجل الاحساس بالانتماء الاجتماعي، فهو في حالة تجديد مستمر بحثاً عن التميز

والتحرر من الصور القديمة، وفي هذا الصدد يشبهه باومان بالأفعى التي تبدل جلدها كلما استدعت الحاجة الى ذلك (باومان، 2016، الصفحات 183-184).

استخدم زيجمونت باومان مصطلح "التجمع" في وصف طبيعة العلاقة التي تربط الفرد بمحيطه الاجتماعي، ويعود أصل هذا المفهوم إلى "هايدغر"، وتوسع فيه باومان لاحقاً، مشيراً إلى أن البنى السياسية التقليدية تراجعت وحل محلها تجمعات فردية تكاد تنعدم فيها الروابط العاطفية. ولقد أسهمت الحداثة في تفكيك وإذابة البنى التقليدية الصلبة للمجتمعات وجعلت الوجود الجسدي هو الإطار السائد للحياة العامة (باومان، 2016، صفحة 86).

كما أشار باومان في كتابه الحب المسائل إلى طبيعة العلاقات التي خلقتها الحداثة السائلة والتي أصبحت علاقات هشّة وعابرة، ولا يوجد فيها أي التزام بل هي علاقات تقوم على المصلحة ومبدأها هو الرغبة المؤقتة ومن خلال ما سبق يبدو أن هنالك غياب تام للمسؤولية وذلك لأن العلاقات أصبحت تنحصر في إطار المصلحة واللذة وبمجرد ما تنتهي هذه الأخيرة يتم التخلص منها بكل سهولة وهذا ما وصفه باومان بـ "علاقات الجيب العلوي" (باومان، 2016، صفحة 56)، يبدو واضحاً أن إنسان المجتمع السائل يكره ويبغض كل شيء صلب، وفي الوقت نفسه يحرص على الدخول من علاقات تجنباً للعلاقات الهشّة إلا أنه في حقيقة الأمر ما يحسبونه تجنباً للهشاشة هو في الواقع مصدرها (باومان، 2016، صفحة 60).

أما الإنسان في ظل الحداثة المفرطة كما سماها ليبوفتسكي، أصبح أكثر استقلالية وفي الوقت ذاته أكثر هشاشة، ومع تضخم الوعود وتزايد الحاجات، أصبحت الحياة أكثر صعوبة وتعقيداً، وذلك لأنه كلما زادت خيارات الحرية والرغبة فيها، فكلما قل الإحساس بجوهر الحياة وتراجع المعنى الوجودي مما جعل الفرد أكثر عرضة للضياع (Lipovetsky, 2006, p. 31).

أفضى التحول إلى الحداثة السائلة كما تصورها باومان إلى تفكك العلاقات الإنسانية حيث أصبحت هذه الأخيرة ملفوفة بالمنفعة بالنفقات والبعد الذاتي، باتت تتسم بالسطحية واللامبالاة، وغلب عليها الطابع الفردي اليوم.

كما تحطمت القيم وصارت هشّة، فلقد أصبح الإنسان المعاصر يعاني هشاشة في الانتهاء وغياب المعايير الثابتة، وهو ما يعكس وجود أزمة في منظومة القيم الأخلاقية والتي تعتبر ركيزة الاستقرار الاجتماعي. وتبعاً لذلك يرى باومان أن الثقافة الاستهلاكية ساهمت في ترسيخ السيولة، حيث طغت الفردية وضعفت كل أشكال التضامن الاجتماعي (أمبارك ويكيري، 2021، صفحة 1287).

هنالك العديد من المظاهر التي ساهمت في هشاشة العلاقات الإنسانية وتفككها وتبخرها، وتفكك النسيج الاجتماعي ومن بينها التكنولوجيا وتأثير وسائل التواصل الاجتماعي، رغم المزايا الإيجابية للتكنولوجيا إلا أنها أثرت سلباً على العلاقات مما شجع على بناء علاقات سطحية عابرة.

فالتكنولوجيا ساهمت في ظهور مصادر تربوية جديدة، ولم تعد المدرسة والأسرة الموجه الرئيسي للشباب، بل للفضاء الأزرق دور هام في تكوينهم وتوجيههم وكذلك السيطرة على ميولهم ورغباتهم؛ فقد ظهرت أفكار جديدة

بفعل مواقع التواصل الاجتماعي، التي تعتبر المخدر الأفكار الشباب مما أدى إلى ضعف وتراجع المؤسسات التقليدية في نقل القيم الاجتماعية والاخلاقية والثقافية ، بالإضافة إلى أن هذه المؤسسات تعاني عجزاً في مواكبة التغيرات السريعة التي فرضتها التقنية التكنولوجية (شفيق، 2019، صفحة 27).

لم تتوقف التكنولوجيا عن هذا الحد بل تجاوزت الحياة الاجتماعية الأفراد لتسيطر على جميع مجالات حياته وهي أدت إلى اغتراب إنسان وتشويهه وأصبح الإنسان ذو يعد واحد كما صرح المفكر هربرت ماركوز وقد أشار إلى أن المجتمع الصناعي يقوم بخلق احتياجات وهمية لأجل تكييف وتنميط الإنسان وإحالة إلى بعد واحد هو البعد الاستهلاكي بحيث أصبح لا يفكر إلا في ما تنتجه السلطة وكذلك نبه إلى أن الحاجيات الحاجات التي توفرها السلطة هي حاجات وهمية والهدف منها تكييف وتنميط الفرد وفق متطلبات المجتمع (ماركيوز، 1988، صفحة 12).

يبدو أن كل من هربرت ماركوز وباومان يتفقان في اغتراب الإنسان واستيلائه من طرف التقنية التكنولوجية التي أصبحت تهدد الوجود البشري وهذا ما أشار إليه باومان حيث اعتبر أن التغيرات التي خلقتها التقنية أصبحت تؤثر بشكل كبير على الفرد والمجتمع (أمبارك و يكييري، 2021، صفحة 1288).

3. أزمة الهوية :

إن أزمة الهوية كانت نتاج لجملة التحولات والتغيرات التي أحدثتها الحداثة الغربية وخاصة بعد الانتقال من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة وهذا ما يواجهه الإنسان المعاصر حيث وجد نفسه يواجه إشكالية قديمة في صورة حديثة، وهي: ما مدى حفاظه على هويته وهل ستخضع لمتغيرات الحداثة السائلة.

وبما أن الهوية هي الشعور بالنفس والوعي بالذات وكذلك هي امتلاك صفات مصر مميزة ، وهي الانتماء إلى جماعة تتميز بلغتها وثقافتها وإقليمها الخاص (سحنون و عمور، 2023، صفحة 610)، فهل ستحافظ الهوية على ثباتها واستقرارها أم أنها ستتماشى وفق تحولات الحداثة.

في العصر الحديث لم تعد السلطة الإلهية هي التي تدير شؤون الأفراد بل حل محلها المجتمع، والذي يقوم بتوجيه الأفراد من خلال تزويدهم بالقوانين والأدوات اللازمة لمواجهة الحياة وتحدياتها، واتخاذ القرارات وتحمل المسؤولية. وكما قلنا سابقاً؛ فإن كثيراً من التحولات والتغيرات طالت حياة الفرد، فالمرحلة السائلة تميزت بالاختلاف في الآراء والمواقف وتنوعها، لذا وجب الاعتراف بهذا الاختلاف لأجل تفادي النزاعات والصراعات، فلا يمكن الاعتماد على رأي واحد، فالاعتراف بالاختلاف سيساهم في بناء مجتمع قائم على التفاهم والتسامح (باومان ز، 2018، صفحة 58).

بالنسبة لزيجمونت باومان فالهوية غير ثابتة، فعندما تتأمل ظاهرها تبدو لنا مستقرة وصلبة، أما عندما تتأمل باطنها فهي في حقيقتها غير مستقرة، وذلك لأنها تخضع على الدوام إلى تحولات جعلتها في صراع دائم تواجه دوامة من التيارات المختلفة التي تقف عائقا أمام تشكيلها (باومان ز، 2016، صفحة 139).

كان لفكرة مارتن هايدغر التي تقوم على الفرق بين الشيء الجاهز والشيء القابل للتشكيل دوراً في تفسير باومان لمسألة الهوية، وذلك من خلال تحويل الأشياء الجاهزة وإعادة تشكيلها.

وفي هذه الحالة فهي تقوم بنفس الدور الذي يقوم به الحداثة السائلة من خلال إعادة تشكيل كل الأشياء الصلبة، بما في ذلك الطبيعة البشرية التي تتعاقب وفق مجريات السيولة، فهي في حالة من التحديث المستمر وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على عدم الاستقرار، ومحو كل المظاهر السابقة التي قامت عليها الهوية (أبوجبر، 2022، صفحة 154).

بعد أن كان الإنسان يرغب في بلوغ كل مراحل التقدم والتطور، من خلال الانتقال من عالم الانحطاط إلى عالم التقدم والتطور، كان العالم في بدايته يخضع لسلطة الدين ورجال الكنيسة، ثم انتقل ليصبح عالماً سياسياً يعتمد على استخدام العقل وحرية، وفي نهايته أصبح عالماً صناعياً يقوم على التكنولوجيا ويعتمد على الآلة، وفي خضم هذه المراحل المتعاقبة أدرك الإنسان أن كل هذه التحولات من مرحلة لأخرى ما هي إلا تعبير عن سيورة وتغيير الذات وأن البشر أنفسهم هم صانعو هوياتهم ومبتكري ذواتهم، فالهوية الإنسانية في تحديث مستمر حسب كل مرحلة يعيش فيها، أن هويات أفراد الحداثة السائلة ستتطاير إذا جاز التعبير وسيضطرون إلى تعلم فن العيش مع الاختلاف (بوالسكك، 2020، صفحة 89).

نظراً للتغيرات المستمرة للحياة، فإن الهوية لا تتشكل بصورة نهائية بل هي في تغيير مستمر شأنها شأن كل مجالات الحياة الخاضعة للسيولة، فالهوية أصبحت هشة غير ثابتة، وفي حالة تشكيل مستمر لا تبلغ مستوى الكمال، وهذا ما ينتج عنه توتر وقلق دون القدرة على تجاوزهما (باومان ز، 2016، صفحة 31)، فالقلق شعور أصبح ملازم للهوية.

كما استخدم باومان مفهوم العقلانية الأداتية عند ماكس فيبر، في تفسيره لزمن الهوية مشيراً إلى أن الهوية اختلقت من زمن لآخر، فالهوية في زمن الحداثة الصلبة كانت مرتبطة بمدى قدرة الإنسان على استخدام الوسائل لبلوغ أهدافه. أما في الزمن الذي سادت فيه العولة، فقد كان لها تأثيرات عديدة في تشكيل هوية الإنسان وذلك من خلال ما توفره من حاجات الوفرة والرفاهية، فأصبح الفرد مجرد عبد تم تكييفه وفق الحاجات التي يخلقها له المجتمع (أبوجبر، 2022، صفحة 155).

إن العقلانية الأداتية حسب مفكري مدرسة فرانكفورت، أعلنت من شأن العقل على حساب الأخلاق والقيم الدينية والجمالية وكذا الفلسفة، وأن كل ما يتعارض مع العقل الأداتي يتم استبعاده. فالعقل الأداتي بعد أن كرس للسيطرة على الطبيعة سيطر أيضاً على الإنسان ما أدى إلى تشيؤ الإنسان (بومنير، 2010، صفحة 13)، فبدلاً من أن يكون وسيلة للتحرر أصبح أداة للسيطرة، فقد تم إحالة العقل الإنساني إلى بعد واحد وهو البعد التقني الأداتي. كما أن هذا الذي أصبح يهدد كيان الإنسان وهويته، فقد أصبح مثله مثل الآلة مغترّباً عن ذاته، فاقداً لهويته وقيمه، فقد أدت إلى ظهور الإنسان المغترّب.

كما شبه هايدغر الإنسان بالدمية التي تم استعبادها من طرف الآلة؛ فالتقنية بدلاً من أن تصبح أداة يستخدمها الإنسان، حولته إلى أداة تستخدمها التقنية (Roulet, 1992, p. 126).

إن التحولات الحداثية السائلة ضربت جذورها لتشمل أيضاً الهوية الإنسانية، لقد فقد الإنسان مكانته وكذلك تم اختزاله في بعد واحد، فالعقلانية الأداتية خلقت أشكالاً جديدة من الآليات المسيطرة التي تستعبد الإنسان، وجعلته يتوهم أنه حر لمجرد أن له القدرة على الاختيار.

4. هشاشة القيم:

إن الأخلاق من القضايا التي اهتم بها الإنسان على مر العصور وكان لها أهمية كبيرة في حياة الفرد والمجتمع، ولقد كان لكل عصر قيم أخلاقية ميزته عن باقي العصور، فقد تجسدت القيم عند الإغريق من خلال الأسطورة أما اليونان فقد كان من خلال المحاورات التي يقدمها الفلاسفة، وكذلك كان للديانة المسيحية ورجال الدين دور في رسم معالم القيم من خلال الضوابط والقواعد التي فرضت على الأفراد.

أما القيم في المجتمع المسلم فقد ارتبطت بمجموع الضوابط والقواعد المستمدة من مصادر دينية مثل القرآن الكريم والسنة، كل هذا الاهتمام الذي عرفته الأخلاق على مر العصور بدأ يتلاشى، ويبدى إلى بلوغ البشرية عصر زالت فيه الأخلاق والقيم.

تعود أزمة الأخلاق والقيم الإنسانية إلى سببين: السبب الأول هو التقنية التي حولت المجتمعات البشرية إلى مجتمعات آلية وخاصة بعد التطور الكبير الذي عرفته الآلة، ففي الحضارات الإنسانية القديمة كان العقل يهتم بالعلاقات الإنسانية، أما في المجتمعات المعاصرة فقد تلاشى الاهتمام بالعلاقات وأصبح الاهتمام على النمو الصناعي. أما السبب الثاني في انتشار أزمة القيم هو التشجيع على التصنيع والانتاج الكبير الذي يتجاوز السوق المحلية وليسطر على الأسواق الخارجية، وبهذا فإن العلاقات بين الدول تخضع لمبدأ القوة وليست خاضعة لمبدأ القيم، وكذلك العلاقة بين أفراد المجتمع الواحد تقوم على مبدأ القوة (رياحي، 2016، الصفحات 43-44).

إلى جانب باومان نجد أيضاً المفكر "بول ريكور"، الذي اعتبر أن التقنية هي من الأسباب التي أدت إلى ضياع القيم وزعزعتها، وthemيش الذات الإنسانية، وهو يقول في هذا الصدد: إن الإنسان في ظل التقدم التكنولوجي فقد إنسانيته وتم التحكم في حياته من طرف التقنية (نهارى و غوزي، 2022، صفحة 150).

لقد ضاعت كل معايير القيم مثل الجمال والمساواة والحق والخير، والتي تشكل أساس الحياة الاجتماعية، وتلاشت ليحل محلها الآلة والتصنيع الضخم والإنتاج الكبير، كما تنازل العقل عن دوره في التفكير والنقد ليحل محله التقنية التي أصبحت المتحكم في الفرد والمجتمع، وذلك من خلال تكييفهما وتنميطهما وفق آلياتها واستراتيجياتها.

نادى كانط بالواجب الأخلاقي، وجعل الواجب نابعاً من إرادة الإنسان الحرة، إلا أن الإنسان المعاصر يعيش عصر ما بعد الواجب، ولهذا فإنه يتجاوز فلسفة كانط الأخلاقية، وهذا ما أشار إليه جيل ليبوفتسكي في كتابه "أقول الواجب"، والتي تناول فيها قضية انهيار القيم، وذلك نتيجة استبعاد دور الدين في تأسيس الأخلاق وإقامة أخلاق علمانية تقوم على مبدأ: "يجب أن تفعل" (بن التومي، 2021، صفحة 217).

فالإنسان المعاصر تجاوز أخلاق الواجب، وأحل محلها أخلاق ما بعد الواجب في عصر سادت فيه الأنانية وثقافة السعادة الفردية، وهذا ما عبر عنه باومان من خلال مصطلح سيولة الأخلاق (بن التومي، 2021، صفحة 219).

إن السوسيولوجيا الحديثة قامت بتجريد الأخلاق من المبادئ والمعايير التي تقوم عليها، حيث أصبحت في منزلة غير قابلة للاستخدام، كما تم ربط الأخلاق بالحاجات الضرورية للإنسان، ووجودها يستلزم توفر هذه الحاجات الإنسانية، وهذا فالسوسيولوجيا الحديثة قامت باستبعاد المنظومة الأخلاقية وتجاهلها (باومان ز.، 2014، صفحة 14).

لقد جعلت السوسيولوجيا الحديثة من الأخلاق مادة استهلاكية بدلاً من أن تكون منظومة خارجية تخضع لها البشرية الإنسانية واعتبرتها آلية لضمان توفير الحاجات الإنسانية، وبهذا فالأخلاق اختزلت في مدى قدرتها على توفير الرفاهية والحاجات للأفراد، وهذا ما جعلها غير ثابتة ومتغيرة تتغير وفق تغير الحاجات والضروريات، وهذا ما أشار إليه باومان مختزلاً أطروحة دوركايم عن الأخلاق: "كل مجتمع له أخلاقيات يحتاجها" (باومان ز.، 2014، صفحة 16)، وهي ليست واحدة وتختلف باختلاف الزمان والمكان، وتتغير بتغير الظروف، خصوصاً في ظل المجتمع السائل أصبحت تقاس بمدى تحقيقها لمصالح واحتياجات البشر، إذ هي أخلاق المنفعة لأنه يتم تحديدها وفق ما حققها من منفعة بدلاً من أن تمارس القواعد ثابته.

بالنسبة لعلاقة الثقافة الحديثة بالأخلاق هي علاقة منفصلة، وذلك يعود إلى فكرة المسؤولية الأخلاقية سواء الفردية أو الجماعية (زيجمونت و دوسنكس ، 2018، صفحة 175).

بالنسبة للمسؤولية الأخلاقية الفردية فقد تم التقليل من أهميتها، وذلك لأن الفرد لم يعد يتحمل نتائج أفعاله أو يحاسب عليها، وأصبحت سلوكياته تُبرر وفق الظروف الاجتماعية والخارجية، ما أدى إلى تراجع الشعور بالمسؤولية وعدم الالتزام بالقواعد والضوابط الأخلاقية. أما فيما يخص المسؤولية الجماعية فقد تم استبعادها، وهي لم تعد بتلك الأهمية موجودة، ونتج عن ذلك عدم الالتزام بالقيم، وأصبحت الأخلاق مجرد خيار فردي مثلها مثل أي مادة استهلاكية تخضع لمغريات الاستهلاك.

من الأسباب التي أدت إلى هشاشة القيم، هي الوسائل التقنية، وكذلك أدوات التواصل الاجتماعي، والتي خلقت مسافة بين الفرد وأفعاله ونتائج أفعاله ما نتج عنه انفصال للفعل عن الأخلاق، وهذا ما جعل من الأفعال الإنسانية آلية خالية من المسؤولية (باومان وليون، 2017، صفحة 135).

كذلك لم تستطع القيم مواكبة التكنولوجيا، ولم تتمكن من تجاوز الاشكالات التقليدية، وهذا ما أدى إلى خلو الأفعال من القيمة الأخلاقية، لذلك يجب تطور الوعي الإنساني والأخلاقي، بما يتوافق مع التطورات التكنولوجية السريعة، لتحقيق المسؤولية الأخلاقية (باومان ز.، 2017، صفحة 139).

5. خاتمة

من خلال ما سبق يتضح أن زيجمونت باومان سلط الضوء على مجموع التغيرات والتحولات التي ميزت المجتمع المعاصر، والتي طالت حياة الفرد والمجتمع، وكيف كانت هذه التحولات انعكاسات سلبية أثرت على كل جوانب الحياة الإنسانية حيث مست العلاقات الإنسانية وأثرت في تكوين الذات الفردية وساهمت في تذبذب القيم الأخلاقية وعدم ثباتها.

ركز زيجمونت باومان على مصطلح السيولة وجعله نقطة الانطلاق لوصف وضع المجتمع المعاصر، والذي يمتاز بالتحول والتغير المستمر والدائم، بالإضافة إلى عدم الثبات والاستقرار والسرعة الفائقة في الانتقال من وضع إلى آخر. فالسيولة هي أزمة المجتمع والفرد لأنها شملت الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية وحتى الروحية، وجعلت من البشر في سباق مستمر مع مختلف المستجدات التي تخضع في نفس الوقت لتغيرات مستمرة.

زيجمونت باومان قدم نقداً لاذعاً للمجتمع المعاصر، أو كما سماه المجتمع السائل، من خلال رفضه للاستراتيجيات والآليات التي يفرضها النظام القائم على الأفراد. فالفرد في حالة تشكيل مستمر وفق ما يفرضه عليه الواقع المتغير، فهو لا يعيش وفق ما تتطلبه إرادته الحرة، بل يعيش وفق الاختيارات التي تفرضها عليه المنظومة الاجتماعية والاقتصادية السائلة، وهذا ما أدى إلى زوال العلاقات الإنسانية وتحولها إلى علاقات مؤقتة وعابرة، كما فقدت الذات الإنسانية وفقد الشعور بالانتماء، إلى جانب القيم التي لم تعد خاضعة لقواعد ثابتة وواضحة، وهذا ما جعل من بنية المجتمع هشّة وغير متماسكة.

من خلال دراسة باومان وتحليله للمجتمع السائل قدم نقداً عميقاً للسيولة وآثارها، وكان الهدف من هذا النقد لفت الانتباه إلى طبيعة الحياة التي يعيشها الفرد في ظل السيولة، وهو لم يقدم حلاً مباشراً تدعو إلى التخلص منها، بقدر ما أشار إلى ضرورة عدم الخضوع للقيود التي تفرضها على الأفراد من خلال تحقق الإرادة الإنسانية ونشر الوعي.

6. قائمة المراجع:

باللغة العربية:

- باومان زيجمونت، وليونيداس دوسنكس . (2018). *الشر السائل - العيش مع اللابديل* (الإصدار الطبعة الأولى). (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- زجمونت باومان، و ديفيد ليون. (2017). *المراقبة لسائلة*. (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث و النشر.
- أحمد أمبارك ، و محمد أمين يكييري. (2021). *السيولة وتجلياتها في مقارنة باومان النقدية للحدثة الغربية*. *مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية*، 9(2)، صفحة 1287.
- ايكوفان شفيق. (2019). *التكنولوجيا الحديثة وأزمة العلاقات الإنسانية*. *مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية*، 11(3)، صفحة 27.
- حجاج أبو جبر. (2022). *هل من مكان للهوية في عالم معولم؟ استكشاف الهوية السائلة عند زيجمونت باومان*. *تبين*، 11(41)، صفحة 154.
- رشيدة محمدي رياحي. (1، 2016). *أزمة القيم في المجتمعات هل خلاصها في تعقيدها*. *مجلة أبعاد* (3)، الصفحات 43-44.
- زجمونت، باومان. (2017). *الخوف السائل*. (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- زيجمونت باومان. (2014). *الحدثة والهولوكوست*. (حجاج أبو جبر، المترجمون) القاهرة، مصر: مدارات للأبحاث والنشر.
- زيجمونت باومان. (2016). *الأخلاق في عصر الحدثة السائلة* (الإصدار الطبعة الأولى). (سعد البازعي ، و بثينة ابراهيم، المترجمون) هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة.
- زيجمونت باومان. (2016). *الأخلاق في عصر الحدثة السائلة*. (سعد البازعي، و بثينة إبراهيم، المترجمون) أبوظبي، الإمارات: دار الكلمة.
- زيجمونت باومان. (2016). *الحب السائل - عن هشاشة الروابط الإنسانية*. (حجاج أبو صير، المترجمون) طرابلس، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- زيجمونت باومان. (2016). *الحدثة السائلة* (الإصدار الطبعة الأولى). (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث.
- زيجمونت باومان. (2016). *الحياة السائلة* (الإصدار الطبعة الأولى). (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- زيجمونت باومان. (2018). *الثقافة السائلة* (الإصدار الطبعة الأولى). (حجاج أبو جبر، المترجمون) بيروت، لبنان: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- سعاد سحنون، و عبد السلام عمور. (01، 2023). *سؤال الهوية والاختلاف من منظور الفيلسوف زيجمونت باومان*. *مجلة رفوف*، 11(1)، صفحة 610.
- عبد الغاني بوالسكك. (2020). *تحولات الحدثة والظواهر السائلة*. *في فلسفة زيجمونت باومان*. الأردن: عالم الكتب الحديث.
- فضيلة نهاري، و مصطفى غوزي. (2022). *أزمة الأخلاق والوعي عند الإنسان المعاصر عند فلسفة بول ريكور*. *مجلة دراسات في التنمية والمجتمع*، 7(3)، صفحة 150.

كمال بومنيّر. (2010). *النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت - من ماكس هوركهايمر إلى أركسل هونيث* (الإصدار الطبعة الأولى). الرباط، المغرب: دار الأمان الرباط.

مسعودة بن التومي. (2021). *عصر ما بعد الواجب وأزمة البديل الأخلاقي*. مجلة الباحث - العلوم الإنسانية والاجتماعية، 12 (2)، صفحة 217.

هربرت ماركيوز. (1988). *الإنسان ذو البعد الواحد* (الإصدار الطبعة الثالثة). (جورج طراييشي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الآداب.
باللغات الأجنبية:

dfgf. (fgf). gdf. fdg: dfg.

Lipovetsky, G. (2006). *Le bonheur paradoxal : Essai sur la société d'hyperconsommation*. (É. Gallimard, Éd.) Paris, France.

Roulet, G. (1992). *Herbert Marcuse: philosophie de l'émancipation*. France, Paris: Edition Presses Universitaires de France.